مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة باتنة1 المجلد (26) – العدد (02) (ديسمبر، 2025) -ص 221- 238
ISSN 1111-5149 /E. ISSN 2430-2588

الاستلزام الحواري في الخطاب الروائي الجزائري

"رصيف الأزهار لا يجيب" لـ (مالك حدّاد) - أنموذجا-

Conversational Implicature of Narrative Discourse in the Algerian Novel. Case Study : *Le Quai aux Fleurs ne répond plus* by Mallak Haddad

خديجة جليلي،[1*] جامعة باتنة 1، khedidja.djelili@univ-batna.dz
https://orcid.org/0000-0003-1585-9873

تاريخ الاستلام	تاريخ القبول
2025-10-09	2025-11-16

ملخص

يُعدّ الاستلزام الحواري من آليات تحليل الخطاب تداوليا، ولا سيّما بالنّسبة للّغات الطّبيعيّة التي تحقّق التّواصل الحرفي وغير الحرفي، ذلك أنّ المتكلّم يقول كلاما ويقصد غيره، كما أنّ المستمع يسمع كلاما ويفهم غيره، وهذا ما يتطلّب تأويلا يتأطّر في سياق ومقاصد المخاطبيْن. تسعى دراستنا لقراءة الخطاب الروائي الجزائري "رصيف الأزهار لا يجيب" لـ (مالك حدّاد) وفق النّظرية التّداولية وباسترفاد مبادئ الاستلزام الحواري في بُعدين: البعد الأوّل: نرصد فيه المقولات النّظرية، والبعد الثاني: لقراءة تـمَثُّل النّظرية.

بطرح الإشكالية التالية: كيف ستُوظّف نظرية الاستلزام الحواري في مقاربة الخطاب الرّوائي الجزائريّ؟ أي كيف نضبط القراءة بـما هي عملية منفتحة على مرجعيات متعدّدة في إطار يـمنحنا المعنى المقصود والصّحيح ويبعدنا عن كلّ تأويل فاسد؟ فالحوار ليس مجرد تعاطي الكلام بل هو المقدرة على التوظيف المناسب له أثناء التلفظ به في السياقات والمقامات المختلفة. وقد شكّلت رواية (مالك حدّاد) استجابة فعّالة لقواعد (غرايس) بوصف النّصوص الأدبيّة الأكثر انتهاكا واختراقا لقواعد الحوار.

الكلمات المفتاحية

التداولية؛ الاستلزام الحواري؛ بول غرايس؛ رصيف الأزهار لا يجيب؛ مالك حدّاد.

Abstract

Pragmatic analysis extends beyond linguistic form and literal meaning by attending to context and communicative intention. Conversational implicature is a key mechanism in pragmatic discourse analysis because it explains how speakers can mean more than they explicitly say, and how hearers infer intended meanings through contextual reasoning. This article applies implicature theory to the Algerian novel “Le Quai aux Fleurs ne répond plus” by Malek Haddad. It first outlines the relevant theoretical premises and then offers an applied reading that traces how implicatures operate within narrative dialogue. The study addresses questions concerning how implicature can be mobilised to interpret narrative discourse and how interpretation can be guided to avoid arbitrary or distorted readings. It also argues that dialogue involves not only word choice but appropriate use across situations. The novel is presented as a strong challenge to Gricean maxims because it foregrounds literary discourse that deliberately violates conversational principles to achieve aesthetic and communicative effects.

Keywords

Pragmatics ; Conversational implicature ; Paul Grice ; Le Quai aux fleurs ne répond plus ; Mallak Haddad.

*المؤلف المراسل

مقدّمة

يقع الوطن العربي في منطقة تتداخل فيها مصالح الشرق والغرب، وعلى هذا الأساس، فإنّ تعلُّم اللغات تكريس للغة الحوار بين الثقافات بـ..نـ...ـاءً على حتمية المثاقفة (Acculturation). إلاّ أنّ تعلّم اللغات لا يكون بالاستعمال الحرفي للغة كما كان في ظل اللسانيات السوسيرية / اللغة كنظام مجرد، بل التعرف على اللغات في سياقاتها الثقافية واستعمالاتها التداولية لتحقيق الفعل التواصلي. وبهذا تتجاوز المقاربة التداولية سؤال البـ..نـ..ـة، وسؤال الدلالـ..ـة، لتـهتـ..ـمّ بالسؤال السيـاقي / المقامي.

إذًا، فالتداولية (Pragmatique) ليست علما لغويا محضا، ولكنّها علم جديد يدرس ظاهرة التواصل اللغوي في مجال الاستعمال، فيحدث التبادل بين المتكلم والسامع، ويظهر ذلك جليّا في مقاطع الحوار، فتكون إرادة المتكلم إيصال المعاني والدلالات بوعي أكثر من الألفاظ والعبارات نفسها.

إنّ التّداوليّة في محطّتها الأولى ارتبطت بحقبة الخمسينيات؛ فانشغل الجيل الأوّل من التداوليّين، خاصّة (جون أوستين John Austin) و(جون سيرل John Searle) بالأفعال الكلاميّة وقبل ذلك رصد (تشارلز موريس Charles Morris) الطّابع التّداولي للإشاريّات. أمّا دراسة الفيلسوف الأمريكي (بول غرايس Paul Grice (1913 -1988) للاستلزامات الحواريّة فمهّد الطّريق لانفتاح التّداوليّة على حقول معرفيّة مثل: الذّكاء الاصطناعي والبرمجة اللّغويّة العصبيّة وعلم النّفس المعرفي، و:«يتجلى إسهام غرايس في أنّه استطاع توضيح مفهوم المعنى في حدود سيكولوجية عامة مثل القصد والاعتقاد (إسماعيل، 2005، صفحة 97) ، وذلك حين بلور "مبدأ التعاون Cooperative principle" في محاضرات ألقاها في جامعة "هارفارد Harward" الأمريكية منذ 1967 في مسألتين: نظرية المعنى غير الطبيعي، وكيف يستعمل النّاس اللّغة (أدراوي، 2011، صفحة 98) .

إذًا، الاستلزام الحواري هو أحد مجالات التداولية التي اهتم بها (غرايس)، فهو آلية من آليات الخطاب، إذ يقدّم تفسيرا لقدرة المتكلم على أن يعيَ أكثر مما يقول: أي أكثر مما تؤدّيه العبارات المستعملة.

وتُعدّ ظاهرة الاستلزام الحواري ظاهرة لصيقة باللغات الطبيعية، وهو ما يؤسس لنوع من التواصل يمكن وَسْمه بالتواصل "غير المعلن" (الضمني)، بحجة أن المتكلم يقول كلاماً ويقصد غيره، كما أن المستمع يسمع كلاماً ويفهم غير ما سمع. وهذا يعني أن التأويل لا يتم بشكل اعتباطي، وإنما تؤطره وتوجهه الظروف المحيطة بالخطاب، من متكلمين وسياق ومقاصد وما إلى ذلك.

وهذا يدفعنا إلى طرح الإشكالية التالية: كيف سـتُوظّف نظرية الاستلزام الحواري في مقاربة الخطاب الرّوائي الجزائريّ؟ أي؛ كيف نضبط القراءة بما هي عملية منفتحة على مرجعيات متعدّدة في إطار يمنحنا المعنى المقصود والصّحيح ويبعدنا عن كلّ تأويل فاسد؟

إذًا، تسعى المقاربة لمساءلة التّجرِبة الرّوائية الجزائريّة المكتوبة باللغة الفرنسية مثيرة جملة من التساؤلات

1 كيف نتكلّم بشيء، ونريد قول شيء آخر؟

2 ـ ماذا يقول النص حين يتكلّم؟

3 ـ ما هو مصدر الالتباس (Ambiguité) والوضوح (Clarté)؟

هذا ما سنرصده في هذه المقاربة والتي نستهلّها بضبط المصطلح والمفهوم ليتحقق لنا دقة التصوّر.

إنّ منطق المحادثة يقوم على مبدأين أساسيين: مبدأ التعاون ومبدأ الاستلزام الخطابي، فالغاية المتوخاة من الاهتمام بشروط الاستعمال تهدف إلى عملية بناء أو إنشاء للمعنى طبقا لتعاون وتكامل بين الأطراف وتحقيقا للتفاهم بين المستخدمين، وتتضمن هذه الغاية الإقرار بأنّ المعنى هو ما يحقق أكبر قسط من التفاهم المشترك ولا يتمثل بالضرورة في الاتفاق الكلي لأنّ اللّغة هي في جانب منها نسبية وخاضعة لنمط تفكيرنا الخاص وهذا من شأنه أن يحد نسبيا من التواصل. وبناءً على ما سلف «**فالدّلالة** هي ما قيل، والاستلزام الخطابي هو ما تـمّ تبليغه» (روبول و موشلار، 2003، صفحة 55)

1 ـ مبدأ التّعـــــاون (Cooperative principle)

يقتضي "مبدأ التعاون Cooperative principle"–عند غرايس-أنّ المتكلمين متعاونون في تسهيل عملية التخاطب، إذًا مبدأ التعاون، مبني أساسا على نزعة إنسانية تعاونية مفترضة، وهو ببساطة وسيلة لشرح كيفية وصول الناس للمعاني. وكل خرق لـــ "مبدإ التعاون" يسمّيه (غرايس) بـــ "الاستهزاء بالمبادئ".

وقد اقترح مجموعة من القواعد لتضبط عملية التخاطب وتشتمل على مبادئ: « المحادثة المتفرعة عن مبدأ التعاون هي التي تفسر كيف نستنتج المفاهيم الخطابية» (محمد، 2006، صفحة 99) .و إنّ العمل بمفهوم الاستلزام لا يُؤخذ به في التواصل إلاّ في حالات يُتعذّر الأخذ بها بالمعنى الحرفي المباشر، على اعتبار أنّ المتكلّم يُسمح له بقول أشياء مع التّظاهر بعدم قولها، أو يتّهم بقول أمور لم يكن قاصدا إليها (أدراوي، 2011، صفحة 116): «فيما يخص مبدأ التعاون فينحصر في التّذكير بأنّ المتحاورين يشكّلون مجتمعا» (أ.مولز، ك، و ك، 2014، صفحة 136)، حيث يفترض المتخاطبون مجموعة من القواعد في العملية التواصلية التخاطبية، التي ينبغي احترامها، وقياسا على ذلك، تُمثل بقوانين المرور قواعد إلزامية، لا يصحّ انتهاكها إلاّ في حالات خاصة واستثنائية، كأن يكون (متدرّبا حديثا، سكرانا؛ سائق يتعذّر عليه السّيطرة على السيارة، سيارة إسعاف أو سيارة مطافئ)، أو أنّهم يتّبعون مجموعة قوانين أخرى كـ (سيارة تشير أرقامها إلى هيئة أجنبية)، وفي هذه الحالات تُعيد فحص افتراضاتنا أو نعطّلها مؤقّتا. وبالطّبع هناك أوقات حين نضع افتراضنا بأنّ آخرين يعملون وفقا لمجموعة مبادئ المحادثة ذاتها (توماس، 2010، صفحة 81).

ولوصف ظاهرة الاستلزام أنشأ (غرايس) أربع قواعد (الرحمن، 1998، صفحة 238)، (أدراوي، 2011، صفحة 99) متفرّعة عن "مبدإ التعاون" أو كما تسمّى بالمسلّمات الحوارية (صحراوي، 2005، صفحة 33،34)، (عكاشة، 2013، صفحة 91)، وأُطلق عليها مصطلح المقولات (آرمينكو، 1987، صفحة 54)استلهاما لمقولات كانط الفلسفية، في حين فضل (محمد يحياتن) مصطلح حكمة لـمّا قال: «ينبني مبدأ التعاون على أربع حِكَم أساسيّة » (يحياتن، دت، صفحة 33) وكذلك تداول الباحثون مصطلح مبادئ (الطلبة، 2008، صفحة 168) وكلّ هذه المقابلات الترجمية والاقتراحات الاصطلاحية مكافئات للمصطلح الأجنبي Maximes /principes ، إلاّ أنّ مصطلح حِكَم قد يثير التباسا مع الحِكم والأمْثال في تراثنا العربي، وفي تصوّرنا أنّ هذا الاصطلاح بعيد عن القصد. وتبعا لفوضى المصطلح هذه ارتأينا أن نستعمل في مقاربتنا المصطلح الأكثر استخداما في الأوساط الأكاديميّة والبحثيّة ألا وهو مصطلح: مبدأ.

2 ـ المبادئ الأربعة لـ (بول غرايس Paul Grice)

2 ـ 1 ـ مبدأ الكمّ (Quantité)

ما يعنيه مبدأ الكمّ الابتعاد عن الاستقصاء المفصّل، وتفادي الإطناب والاستطراد في الكلام أو التخاطب، طبقا لمقولة البلاغة العربية القديمة. -"ليناسب مقالك مقامك"، وترمي إلى أن يناسب القول ما هو مطلوب في كلّ مرحلة، أي وجوب تعلُّق الخبر بالمقام." (أدراوي، 2011، صفحة 100)، فهو يعتبر حدّا دلاليا، الغاية منه الوصول إلى الفائدة المطلوبة من غير إطالة مملة أو اختصار مخل.

أما فحوى مبدأ الكم فهو: اجعل مشاركتك الإبلاغية ومساهمتك في المحادثة الخطابية تُفيد القدر المطلوب؛ أي ما يستوجبه الأمر/الغرض في التبادل التواصلي، ولا تجعل مشاركتك التفاعلية في الحوار أكثر مما هو مطلوب، لتحقيق النجاعة في نقل المعلومات اللازمة لمخاطبك، فلا يقول المتحدث أكثر أو أقل مما هو مطلوب، وضروري بالضبط.

وإذا ما أردنا التمثيل لهذه القاعدة من مدونتنا السردية، فإنّ هذا المقتطف النّصّي يُطالعنا عليها:

«لم يعُد خالد بن طوبال يعيش بكلّ كَيانه في الحاضر (...) وماذا عساه يُجيب به هذا الصِّحافيّ؟ وماذا يكون جوابه للقرّاء؟ لقد انتقل خالد إلى الضّفّة الأخرى. وقد ابتعد عن (الآخرين). وأصبح يعيش في عالم تسوده الوحشة وسيصبح الصّمت شيئا فشيئا، ملجأه الوحيد.

فقال الصِّحافيّ السويسري:

- لا يبدو أنّك ميّال إلى الحديث.

ولم يجد خالد ما يجيب به، سوى هذه الكلمات البائسة:

- ليس لي ما أقوله!

- إذن، لماذا تكتب؟

- الأمر بسيط جدّا: إنّني لم أعدْ أُجيد فنّ الحديث» (حدّاد، دت، صفحة 44).

يتبيّن لنا من خلال هذه المحادثة التي جرت بين (خالد بن طوبال) والصحفي سويسري أنّ هذا الأخير لم يتلق إجابة كافية شافية، ومحدّدة ومناسبة من حيث قـــــدر كمّ المعلومات المبحوث عنها؛ من الأديب النّاص (خالد بن طوبال)؛ إذ كان من المفروض أن يُقدّم الإجابة المنتظرة والمطلوبة لقرّائــه، وما الصّحفي إلاّ وسيط بينه وبين قرّائـــه.

ولـــمّا كانت المحادثة تشترط حضور المحاور الآني والمباشر لطرفي الخطاب، فحضور (خالد بن طوبال) كان حضورا جسديا وغيابا نفسيّا، فـــــــ(خالد بن طوبال) يفكّر دون لغة؛ إذ يغيب الفكر وتتبدى اللّغة، و يظهر ذلك في قول الباحث (هيبوليت Jean Hyppolite): « لا يوجد فكر داخلي خالص يسبق التعبير عنه (...) يظل تطوّر الفكر دائمًا مرتبطًا بتطور النقاش في التعبير؛ إذ الخطاب غير المكتمل هو فكرة لم تر النور بعد، وإذا كان هناك صمت في الكلام ، فذلك يعني أنه هناك نيّة في الكلام(Hyppolite, 1971, pp. 921,922) .

فالفكر لا يتمظهر إلاّ في صـــورة الكلام، بما أنّ الفكر لا مرئي فالكلام يُبرزه، وحتى لحظات الصمت فهي كلام؛ تارة يُقرأ سيميائيا، وتارة أخرى نيّـــة واعتزام لمبادرة الكلام: «فالمعنى يريد أن يدلّ على نفسه، وهو لا يُعبّر عن نفسه إلاّ لدى اعتزام-قولvouloir-dire) ليس هو سوى اعتزام-قول للنّفس vouloir-se-dire) عند حضور المعنى» (دريدا، 2005، صفحة 69).

ومن ثـــمّة فملفوظ نصّ المدونة السابق؛ يمكن أن يتمفصل في قطبين لا غير؛ "اعتزام قول" و"اعتزام قول للنفس"، وهذا ما تجلى عند (خالد بن طوبال)، من خلال الملفوظ القولي: "لا يبدو أنّك ميّال إلى الحديث"؛ أي اعتزام وقصـــد ونية تبليغ خطاب للآخر. أمّا القطب الثاني فهو "ليس لي ما أقوله"، غير أنّ (خالد بن طوبال) كما ســـنرى امتلك مناجاة وحديثا نفســـيا طويلا؛ ســـنتوقف عنده، مقاربين مقولات (غرايس).

إذا؛ من خلال النموذج المقدّم، نلاحظ أنّ (خالد بن طوبال) قد خرق قاعدة الكمّ؛ ما الذي جرى حينئذ في التواصـل؟ طُرح على (خالد) سـؤال من صـحفي يسـتفسـر عن معلومات ينقلها إلى قرّائه، فأجابه في حديث صـــحفي؛ يُعَدُ ســـياقا للمحادثة بالمفهوم التداولي، ليطلب الصّـــحفي الإفضـــاء بمعلومات حصـــرية؛ لكنّه لم يزوِّده بأيّة معلومة فكانت الإجابة " ليس لي ما أقوله!" هذه العبارة هي استباق سردي /استشراف أيْ؛ أنّه لا يُجيب عن الأسئلة بما يتوقّعه الصّحفي فـــــــ "ليس" تختصّ بتعيـــــين نفي زمن الآن: «لأنّ ليس لو كان فعلا لكان ذلك لدلالته على حصول معنى النفي مقرونا بزمن مخصوص، وهو الحال» (الصغير، 2001، صفحة 421)، إذْ انتقلت الـمحادثة من الحوار الشّفويّ إلى مناقشة الخطاب المكتوب " إذن، لماذا تكتب؟" فأجاب (خالد) قائلا: "إنّني لم أعدْ أُجيد فنّ الحديث" وهذا خرق ثان ويمكن إيضـــاح ذلك بالنّظر لطروحات العلاقة بين الصّـــوت والكتابة في التّصـــوّر الدريديّ؛ إذ الكتابة مـــمارسة هامشية ثانوية مقارنة بـــمركزيّـــة الصّوت؛ ففهمنا «حسنا لما يجعل للصّوت سلطانا، ولما يجعل من الـميتافيزيقا والفلسفة وتعيين الوجود حضورا عهودا للصّوت بما هو تحكم صناعيّ في الوجود – الموضوع» (دريدا، 2005، صفحة 125).

وبناءً عليه فالكلام فوريّ؛ ومباشر قابل للتصحيح والاستعادة الآنية، حين اللّبس وسوء الفهم، بينما المكتوب مثبت في حروفه؛ يتحرّر من الأب، سلطة الصّوت الـــمفرد؛ إنّه الغراماتولوجيا؛ وانفتاح

على تعدّد الدّلالات. ومن ثـــمّة تصبح الكتابة داء ودواءً (دريدا، صيدلية أفلاطون، 1998، صفحة 7)، وهو ما اصـــطلح عليه دريدا بالفارماكون؛ «إنّ بإمكان الكتابة أنْ تســـكُن باطن الكلام الذي كان هو بعينه يعتمل صميم الفكر» (دريدا، 2005، صفحة 134).

واستئناسا بقاعدة الكمّ التي تنصّ على ضرورة التناسب بين عدد الكلمات والأفكار المطروحة، فإنّنا نستشفّ حين نقرأ:

" لا يبدو وأنّك ميّال إلى الحديث.

ولم يجد خالد ما يجيب به، سوى هذه الكلمات البائسة:

- ليس لي ما أقوله!

- إذن، لماذا تكتب؟

- الأمر بسيط جدّا: إنّني لم أعدْ أُجيد فنّ الحديث".

إنّ هذا الملفوظ القصـــير الذي يُبين أنّ الدّوال محدودة، والدّلالات غير المنتهية، يمكن أن تذهب في شـــتّى مناحي التأويل، بأنّ (خالد) لم يعد يرغب في الحديث بالفرنســـية، فادّعى عدم إجادتها، وهذا ما حمل الصّحفيّ على الاستغراب؛ لأنّ (خالد) في هذا الحديث لم يصرّح علانية مقـتـه وكراهيّته للّغة الفرنسيّـــة، أليس هو القائل: " إنّ اللّغة الفرنسية منفاي La langue française est mon exil"، فعدم توضيح القصد بالقدر الكافي هو خرق لقاعدة الكمّ، فهو قد تحدّث بأقـــــــلّ ممّا هو مطلوب وضروريّ بالضّبط.

وإذا كنّا في محادثة عادية فإنّ هذا الحوار يشوبه القصور وانقطاع التواصل والتشويش، ولكن الـــــمحادثة بين الشّخوص السّرديّة، أوحت بدلالات شعريّة أنتجها القارئ الـــــمؤوّل؛ فاللّغة أصوات مُحايدة ونحن من يصنع لها المـعـــنى.

2 ـ 2 ـ مبدأ الكيف (Qualité)

من الـــــمسمّيات التي تدور في فلك مصطلح الكيف، والتي اقترحها الباحثون نجد مصطلح النّوعية (توماس، 2010، صفحة 82،83)، ويحضر في أحايين أخرى مصطلح "مبدأ الصّدق" (محمد، 2006، صـــفحة 102)، ونلحظ أنّ إجماع الباحثين قد وقع على مصـــطلح الكيف، وهو ما يُعرف بمعيار التّداول النّقدي للم صطلح مقارنة بم صطلحَيْ النّوعيّة الذي ي شي بإطلاقه على الأ شياء المادّيّة، في حين أنّ مبدأ الصّدق يتعلّق بالجانب الأخلاقي.

ويقصـد بـــــمبدإ الكيف أن العلاقة التي تجمع بين المتحاوريْن أســاســها الصـدق؛ فلا ينجح المخاطب مع مخاطبه إذا تبادلا كلاما غير مقنع، يشـــوبه الكذب، أو تُشـــتم منه رائحة الزيف، كما لا فائدة تُرجى من كلام ضعيف مهلهل؛ لا يستند على دليل أو برهان. أمّا نصّ مبدأ الكيف فهو: لا تقل ما تعتقد أنّه كاذب زائف، ولا تقل ما لا تســـتطيع البرهنة على صـــدقه، وما يعوزك الدّليل عليه. إذًا عليك التلفظ فقط بما يو سم بالصّحة والذي با ستطاعتك أن تحتجّ عليه (صحراوي، 2005، صفحة 33،34) و (عكاشة، 2013، صفحة 91،92).

ولتوضيح هذه القاعدة نستشهد بنماذج نصّية من المقطع الآتي:

«وقد استقبلتْ ربّـــة البيت الزهور بتأثّر بالغ، وكانت في ذلك مـخلصة. وتناولتها مونيك كما لو أنها مِلْكٌ لها دون غيرها وكما لو أنها لم تنبت إلاّ من أجلها وقال لها خالد مازحا:

- ناوليها حبّـــة أسبيرين حينما تلاحظين بأنّها بدأتْ تذبل.

- ولكنّ النّكتـــة لم تكن تناسب الـمقام» (حدّاد، دت، صفحة 119).

يشير مصطلح "ربّـــة البيت" الذي ظهر أواخر 1970 إلى دلالات قدحيّة حيث تقتصر مـمارسة المرأة في فضائها الـمُغلق على القيام بالأعمال المنزلية وإنجاب الأطفال حسب النّاشطة النّسويّـــة الألمانيّة "ماريا ميس"، وبالمنظور الماركسي يُعدّ مصطلح " ربّة البيت / المنزل" هيمنـــة ذكوريّة وشكلا من أشكال الاستعمار، فممارسة المرأة للعمل المنزلي لا يجعلها تنتظر تقاضي أجر كمقابل بل تمارسه بدافع الحبّ والشّعور بالأمن والرّاحة والاستقرار في مملكتها (فيديريتشي، 2018، صفحة 128) وهو أكبر استغلال للمرأة من قبل الرجل.

ولـــمّا كان الحبّ بعض تـصوّر المرأة، فقد تتوهّمـــــــه إن لم تجده وهذا ما تمثّل في رغبة (مونيك) الجامـحة بـ (خالد بن طوبال)، وتجاهل (خالد) لها، بحكم الدّين واختلاف الحمولات الثقافية والاجتماعية بتقاليدها وسـلوكيّاتها والقيم الرّمزية للثّقافة العربيّة، التي تقضـي بتحريم اجتماع الرّجل بأجنبية هذا سبب، والسّبب الآخر هو وفاؤه لصديقه (سيمون كاج) وإلاّ وقع في جرْم الخيانـــة. ومن هنا قد حدث سوء فهم، تـمّ فيه خرق لقاعدة الكيف عبّـــر عنها (خالد) بالـمُجاملة، اللطيفة تتمثّل في إهـــداء الزهور لسيّدة البيت.

يُخطِئ مَن ظنّ أنّ المرأة تُسعدها باقـــة الزهور بقدر ما يُسعدها شعورها باهتمام مَن تأخذ بتفكيره لحظات، وما باقة الزهور إلاّ رمزا مرئيّا للحبّ والجمال والإبداع. وقد فهمت (مونيك) أنّه تودُّد عاشق؛ يُحلّق بعشّاقه في أكوانهم النّائية، لكن سرعان ما صفعها (خالد) بـــمُزاح ثقيل، سبّب لها الحزن والأسـى وهو أعظم من البكاء وقد ردّها إلى وعيها، فتبخّرتْ أحلام اليقظة وعادتْ إلى نقطة الصفر، وانقلبت من الأمل إلى الألم ومن الارتقاب إلى الغـياب.

فإلقاء (خالد) للنّكتة تعبيرا عن الظّرف والرّوح الـمرحة والدُّعابة، غير أنّها تسبّبت لها في أذيّـة معنويّة: « فإذا لم يردّ الـمتلقي على رسالة النّكتة بالضّحك فليس هناك نكتة» (كدر، 2009، صفحة 91)، وإنّما هو تفاعل سلبيّ: « يتجاوز بذلك الخطاب التّصويري إلى التّعبيريّ » (مباركي، 2021) إذ ما اعتبره (خالد) نكتة اعتبرته (مونيك) صغارة حيث إنّ النكتة تخضع لـــمـــبدأيْ اللّذّة والألم باصطلاح (فرويد)، والنّكتة يُفترض فيها: «أن تقدّم متعـة تعـويضيّـة بـما يناسب الـمتلقي» (بوعلي، 1996، صفحة 51). فمـغالطة (مونيك) للمتلقّي والتي أحدثها السّياق (تقديم الزّهور) دفعت بالـمتلقّي إلى التّعاطف معها /الـمواجدة (Empathy)، وقد تـمّ تصحيح الـمغالطة (تقديم الأسبيرين/ مزاح ثقيل) دون أن يدري (سيمون كاج) بما كان يجري في قاعة الاستقبال.

ومن ثمّة فـ(مونيك) رمز للزهور ومعادل موضوعي له في علاقة حميميّة مفقودة بين الزهور والأنثى؛ حين حلمت بتغيير مكانها وثقافتها بارتباطها بـــ(خالد) عاطفيّا وفي ذلك فهي تحاكي الزّهر الذي: «لا يعيش ولا ينمو ولا يكبر إلاّ إذا سُـرِق من مكان منبته أو أُخِذ عنوة» (طيارة، 2006) فللورود لغة خاصّـة تُعبّر فيها عندما يصـمت الكلام؛ فالورود في حالة الفرح متفتّحة، وفي الحزن ذابلة تحتاج

إلى الأسـبيرين!! حين قرأت (مونيك) في الزّهور رسـول العاشـقين وملهم الشّـعراء والأدباء ومؤشّـرا على الإحساس والذّوق، وما تبادله إلاّ تعبيرا عن الحبّ والشّاعرية.

ولئـن عـبّـر التّهادي عن لغة حبّ وتخاطب بين النّاس وبين من يحـبّون، وهذه هي القاعدة في العلاقات الإنسانيّـة، فإنّنا بالـمضيّ بعيدا في تأويل المقام الحضاريّ والتّاريخيّ لرمزيّة الزهور بتصوُّرنا أنّ الزّهور كانت حمراء اللّون تُنبِئ عن التّوجّه للصّوت السّردي (خالد) ومن خلفه الـمبدع (مالك حدّاد) حيث «إنّ الأزهار الحمراء وثيقة الارتباط بالإيديولوجيا السّياسية لدى الأحزاب الاشتراكية في كثير من دول العالم لتكون الوردة الحمراء شعارا لها» (مباركي، 2021).

حريّ بنا أن نقلّب التّأويل رأسـا على عَقب، فبعدما أقمنا العلاقة بين (مونيك) و(الزّهور)، نُحاول أن نقرأ انزياحا في التّصوير الشّعري للزّهرة الذّابلة روح المبدع (خالد) التي تحتضر بين أيدي أصـدقائه الفرنسـيّين في منفاه اللّغويّ والجزائر الجريحة ولعلّه: «تأكيد على قدرة الورد الرمزيّة في اسـتيعاب المعاني الشّـاردة والتعبير عن متناقضـات المعاني فيجمع الحبّ والحرب في إطار واحد» (مباركي، 2021). لتأخذ الزّهرة الذّابلة رمزيّـة عالية للمقاومة في صورة تجمع الحياة والموت. فيتجاوز الورد بذلك ما يعبّر به عن الجمال والحبّ إلى رمز تتشـكّل فيه صـور الوطن في مخاضـاته، فيكون الخطاب تفجيرا بالمألوف للمألوف ومحاورة بالظّاهر للخفيّ من الكلام، ومن هنا يسـتحضـر المبدع الدّلالات التي سبق وأن نظمها (عبد الوهّاب البيّاتي) شعرا حين قال:

«مَا بَيْنَ الْوَرْدَةِ وَالسِّكِّيْنْ

رَوحِي قَطْرَةُ ضَوْءٍ تَحْبُو

وَأنَا أَحْبُو مَعَهَا سَنَمُوتُ كِلاَنَا فِي هَذَا الْمَتْفَى الْمَلْعُونْ» (البيّاتي، 1999، صفحة 7،8).

2 ـ 3 ـ مبدأ الملاءمة (Pertinence)

إذا كانت قاعدة كمّ الخبر: تضبط الجانب الكميَّ للخبر، و-قاعدة كيف الخبر: تحدد كيفية تبليغ الخبر-كما عرفنا سـابقا-فإنّ قاعدة الملاءمة تحدد "علاقة الخبر بمقتضـى الحال"، وهي ما عُرف في الأدبيات البلاغية العربية بقولهم: "لكلّ مقام مقال".

وما يُتوخى من هذا المبـدأ جملة من الشروط والظروف الثقافية والاشتراطات الاجتماعية أي؛ ما سميناه سابقا السياق، الذي لا يتم تناسب المحادثة إلاّ به، ومن ذلك أن يكون الحوار يحمل نجاعة عملية ملموسـة، تجري لفائدة المتخاطبين، والتي تُحدث حركة في المخزون المعرفي الذي يعتقده شـخص ما، حين يُؤول الأدلة اللّغوية انطلاقا من المقاصـد وحيثيات الاسـتعمال، وهذا بالإضـافة إلى السيـاق الموضوعي للمحادثة، فالخروج عن موضوع الحديث، هو خروج عن متطلبات الملاءمة.

وملخص المبدأ يتمثل في: «(اجعل كلامك مناسبا للموضوع)، فيجب أن يكون الكلام مناسبا لسياق الحال» (عكاشة، 2013، صفحة 91،92)، فلتكن مشاركتك ملائمة (صحراوي، 2005، صفحة 33،34)،أي ذات صّـلة بالموضـوع (توماس، 2010، صـفحة 82،83). إذ يقوم مفهوم قاعدة مبدأ الملاءمة على أنّ: «كلّ قول إخباريّ يمكن أن يعتبر غير ملائم إذا كان مجرّدا من أيّة فائدة بالنّسـبة

للمخاطب (...) كلّ قول إذن يجب أن يتوفّر أخيرا على درجة من الملاءمة الموضوعاتية (Thématique) بمعنى أن يوافق السّياق الحواري» (أ.مولز، ك، و ك، 2014، صفحة 141).

وبمراجعة نصّ المدونة؛ يمكن أن نستحضر أنموذجا -نوعا ما- طويلا، يُوضح قاعدة الملاءمة نحاول تقطيعه إلى وحدات دلالية (Segmentation Sémantique) وفيه يقول الكاتب: «وكان ذلك في فصل الخريف وكان بعض العمّال يسيرون في الشّارع وقد حملوا سلّما. وكانت السّحب تنتشر في السّماء ولكن لم تكن تهدّد بالمطر. وكانت صاحبة المقهى تطالع بنهم فوق مقعد مرتفع، قصّة الجريدة المتسلسلة.

وكان الذبّان يتزحلق فوق زجاج النوافذ، وكانت حركته السّريعة تتحدّى القوانين المعروفة للجاذبيّة الأرضيّة. وكان هناك عاشقان منهمكان في تبادل آيات الإعجاب، وتساءل خالد بن طوبال: ماذا سيبقى من هذا الحب؟ وعوضا من أن يفكّر في الأسئلة التي كان يوجّهها إليه الصّحافي. كان منهمكا في مشاهداته، وانتبه إلى أنّ العمّال قد انصرفوا من الشّارع ... أمّا العاشقان فلا تزال وقفتهم الغرامية تطول ... » (حدّاد، دت، صفحة 42).

إنّ تأمّل (خالد) في الفضاء ذو الأفق الرّحب الذي يغيب فيه البصر الحديد باعتباره «الفضاء الكونيّ الواسع الذي يتضمّن الصّحراء والسّماء والبحر يُشكّل رمزا للتّيه والضّياع والموت والمجهول» (بلهاشمي، 2020، صفحة 118)، علاوة على دلالة الرّحلة نحو غاية مجهولة وقوّة غيبيّة من أجل أن تُدرك كنهها نفس «مليئة بالهموم والكآبة» (بلهاشمي، 2020، صفحة 119)حين ضاقت به الأحلام والأفكار وحاصرته الذّكريات.

فما أبلغ أن يخلق (مالك حدّاد) شعريّة؛ يُحاور طبيعة الخريف الغربيّ القاسي المتمادي بلغته الخاصّة. فالخريف يُمثّل الإطار الزّمني المرجعيّ لمشهد قام بفلسفة حقائق إنسانيّة كانت بالنّسبة أيٍّ كان مجرّد " عابر سبيل" / روتين يوميّ إذ «سيميائيات الخريف تعتمد كسيميائيّات كلّ فصل، الاستدلال الاقترانيّ: يستدلّ على معانيها بآثارها القريبة في الفضاء الأرضيّ والسّماويّ» (قريرة، 2019) فالخريف فترة تساوي اللّيل والنّهار – في علم الفلك- ليل الاستدمار مع نهار قوى التّحرّر، ومن منطق آخر أقوى لطبيعة لها حقّ الهيمنة والمغالبة بعد تدرّجات للرّماديّ أيقونة لضبابيّة الوضع في الجزائر.

يُعدُّ الخريف المعادل الموضوعيّ للمظاهر الإنسانيّة، فـــ (مالك حدّاد) يستشرف زوال حبّ العاشقيْن حيث يُستهلَك الحبّ، كما أنهت صاحبة المقهى بسرعة وجبتين؛ غذاء الجسم وغذاء المتعة الرّوحيّة لـمّا أنهت مطالعة القصّة المتسلسلة في جريدتها وعودة العمّال مساءً، إنّه خريف الإنسان وخريف الاستدمار إنّه النّهاية ما قبل الأخيرة، كما يشي الخريف بالاغتراب النّفسي للسّارد والزّمن المغلق لكلّ الأحداث الرّتيبة. ومن هنا، يظهر للقارئ المُتعجّل غياب الملاءمة بين عناصر المشهد في تشكُّل الدّلالة، لكنّ المُتمعِّن يدرك أنّ الخريف يربط بين هذه الدّوال ليعطي ملاءمة صعبة تُكتشف بالقراءة التّأويليّة.

والمشهد الثّاني الذي تلتقطه عين السّارد (خالد بن طوبال) في قراءة تجربة السّارد الذّباب الذي شغل الأدباء والشّعراء من مختلف اللّغات والأجناس، أين نحت (مالك حدّاد) من أفكار "مسرحيّة

الذّباب" لـ- (جان بول سارتر) التي تصنَّف ضمن الفـنّ الـمُقاوم ذو البُعد الـمُلتزم الذي ينشُد التّغيير والـمُواجهة، فلا يخفى على أهل الذّكر أنّ (سارتر) حامل الحقائب (Porteurs des valises) والقائد الثّوريّ التّنويريّ لثورة شباب الثّامن أيار/مايو 1968 بفرنسا.

إنّ الذّباب يختصر أسئلة كونيّة ووجوديّة لا آخر لها، فالذّبابة لها القدرة على المناورة في الهواء إذ يمكنها أن تطير إلى الأمام والخلف أو للأسفل، بل وتهبط على سطح سقف الغرفة (تقف مقلوبة). وإذا حدث واصطدمت بالزجاج، فإنّها تبدأ بالسّقوط، ولكن يظل جناحاها يستمران في الخفقان، وفي جزء من الثانية تتمكّن من الاعتدال واستعادة التوازن والطيران في الاتجاه الـمضاد (Dickinson, 2003, pp. 10-15) وهذا عين المشهد الذي قدّمه السّارد (خالد بن طوبال) حين قسّم الجزائريّ إلى مقاوم مقاومة عنيدة تشبه مقاومة الذّباب للجاذبيّة في انزلاقه على سطح الزّجاج، وخائن يقتات على قمامة اللّغـة الفرنسيّة، وبهذا يشكّل الذّباب في رمزيّتـه الدّاء والدّواء مصداقا لقول الرّسول ﷺ «إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ في شَـرَاب أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْـهُ ثُمَّ لِيَنْزِعْهُ، فإنَّ في إِحْدَى جَنَاحَيْهِ دَاءً والأُخْرَى شِـفَاءً » (إسماعيل ا.، 2006، صفحة 815).

وإنْ كسّر السّارد أو خرق مبدأ الـملاءمة إلاّ أنّ الأطروحة التي يُنافح عنها السّارد وهو صوت (حدّاد) في الرّواية يصـنع بتأمّل المثقّفين رحيق النّحل الذي يمتصّـه القارئ من ثنايا قراءة النّسـيج النّصّـي، فالبُعد الثّقافي لثنائيّة الذّباب والنّحل أو الجيفة والرّحيق، يتجلى في نمطين من المثقفين، أحدهما يفرز جرثومة الوباء ويبحث عن الجيف بشـبق، والآخر يقطع عشـرات الأميال من أجل ملعقة صغيرة من العسل، فهل صدق شكسبير عندما قال إن الطبيعة هي المعلّم الأوّل وليس أرسطو؟! «فإنّ الذّباب تجتذبه رائحة الجيف لهذا يفرز جرثومـة الوبـاء، ويتحوّل إلى رمز لكلّ ما هو فائض ومزعج ومثيـر للغـثـيـان» (منصور، 2017).

إنّهم أولئك الذين يتبنّون الفرنسـيّة بديلا للهُويّة العربيّة فهم – بلا شـكّ- يُثيرون اشـمئزاز (حدّاد)، فإذا ما اسـتطعنا أن نُقنع الذباب بأنّ الزهور أفضـل من القمامة، حينها تسـتطيع أن تقنع الخونة بأنّ "الوطن أغلى من المال"! ومن الاسـتلاب الغربيّ الفرنسـيّ والذّوبان في لغة الآخر، يُعدّ (حدّاد) مبدعا ملتزما بقضـايا وطنيّة ومثقّفا عضـويّا بمصـطلح (أنطونيو غرامشـي) حين قسّـم المقاومون المناهضون للخونة إلى: مَن يحمل السّلاح ومَن يَمْتشق القلم.

بحسّ يختلف عن الآخرين ظلّ (حدّاد) يحمل مأساته الـمزدوجة "الاستعمار واللّـغـة" هذه المأساة هي مَـن رسمتْ مسار كلّ أعماله، وبالرّغم من مأساة اللّغة ظلّ هذا الأديب نـقـيّـا، يعبِّـر عن هموم وطنيّـة وقوميّة وإنسانيّـة، برؤيـة تقدُّميّـة في شكلها العام، بعيدة عن كلّ روح شوفينـيّـة.

وفي محاولة للكشف عن الربط والدلالات بين الصّحفيّ السويسريّ الـمُتسائل عن إبداع (خالد بن طوبال) قائلا: «ماذا كنت تقصـد من عنوان كتابك الأخير؟ (...) ما هو رأيك في الـمنزلة التي سـتحتلها اللّغة الفرنسـيّة في جزائر الغد؟ (...) هل يعاني سـائر الكتّاب الجزائريّين مثلك ما تسـمّيه

مأساة التّعبيـــــــــــــر؟» (حدّاد، دت، صفحة 42،43)، ورد مشهد الذّباب في معرض سؤال الصّحفي السويسريّ عن مكانة اللّغة الفرنسيّة في جزائر الغدّ، فكيف يمكن قراءة هذا المشهد؟

بالنظر في هذه القرائن والعلامات، يظهر بأنّ الناصّ ينحو نحْو العبثيّة (Absurdité)، بحيث إنّ مع وجود الإحساس، وفقدان المعنى، واللاجدوى، فإنّنا يمكن أن نستخرج دلالة من اللّامعنى، وهي فقدان القيمة والغاية في عالم بلا قِيم، إجابة على سؤال الصّحفي الثّقيل الظلّ كالذّباب يُكرّر الأسئلة بطنينه.

نلمس غياب الملاءمة؛ بما هي "علاقة الخبر بمقتضى الحال السّياق الذي لا يتمّ تناسب المحادثة إلاّ به. فعدم الخروج عن متطلّبات الملاءمة بجعل كلامك مناسبا للموضوع" عكس ما هو حال سؤال الصّحفي السويسريّ والمشهد الذي تنقله عين السّارد (خالد)، إذ هو لم يُعطِ رأيا صريحا ومباشرا في الإجابة عن سؤال مكانة اللّغة الفرنسيّة في جزائر الغدّ، والتي تشكّل استعمارا جديدا واستعادة المَثل القديم الجديد القائل: "مات الاستعمار يحيا الاستعمار"، وهي أسلوب للهيمنة والسّيطرة وإعادة البنية، وبذلك فاللّغة الفرنسيّة بحسب الصّحفي السويسريّ هي: «الإخضاع الثقافي" التي تدوم أكثر مقارنة مع استراتيجيا "الإخضاع العسكري."» (الوليد، 2008، صفحة 6).

ولمّا كان "النّصّ آلة كسولة يحرّكها القارئ" -بمنظور (أمبرتو إيكو) - وقاعدة الملاءمة هذه لا يسهُل إيجادها والكشف عنها بديهة إذ القارئ لا يكشف الدّلالات العميقة بيُسر، وهذه الغاية التي يجري إليها المقطع السّردي المُحَلَّل لـ (مالك حدّاد) .

فالمثقف لا يمكنه إيقاف حرب أو نشر عدالة أو إنصاف المجني عليه، بل كلّ ما يستطيعه أن يجعل الأمور أقلّ مرارة محاولا تقليص حجم الأخطاء بمنح البشر المعرفة والوعي بمعزل عن ترجمة تلك الفوارق الكائنة بين ظلال الفكرة إلى مفاعيل، فحدث خرق لمبدإ الملاءمة في الحديث بين الصّحفيّ السويسريّ و(خالد بن طوبال).

2 ـ 4 ـ مبدأ الجهة (Modalité)

تعدّدت المصطلحات الدّالة على مبدإ «الجهة (Modalité) » (صحراوي، 2005، صفحة 33،34)؛ وهو المصطلح الأشهر، أمّا اعتماد مصطلح «الأسلوب » (توماس، 2010، صفحة 82،83) فيوقع المتلقي في اللبس والارتباك مع مباحث الأسلوبية (La Stylistique) في حين أنّ مصطلح « مبدأ الحال» فهو مصطلح تراثي لا يستحضر مقوّمات المفهوم المراد من مصطلح الجهة، أمّا تسمية «مبدأ الطريقة» (عكاشة، 2013، صفحة 91،92) فنراه أقرب للتداول العامي غير الاستعمال المصطلح الوظيفي، رغم الاختلاف في المصطلح إلاّ أنّنا نسجّل التشابه في المفهوم.

إذًا فمجمل التعريفات المحدّدة لمبدإ الجهة «تنصّ على الوضوح في الكلام وتتفرع إلى ثلاث قواعد فرعية:

أ- ابتعد عن اللبس ب- تحرّ الإيجاز ج- تحرّ الترتيب». (صحراوي، 2005، صفحة 33،34)

يُقصد بـ: تحرّ الإيجاز تجنّب الحشو ويعني تحرّ الترتيب التماس التنظيم ولنحترز من الإجمال وندع الغموض والالتباس. فيجب تجنب إبهام التعبير؛ بإيجاز الكلام وتجنب الإطناب الزائد مع الترتيب (حمدوش، 2008) «فيجب في الحوار تجنُّب الإبهام واللّبس والاضطراب في الترتيب

والخلل المنطقي» (عكاشة، 2013، صفحة 92،91). فيتوخى المرسل في تعبيره الوضوح ليحقق فعالية الحوار المثمر، والإبانة عن غرضه للمتلقي (بلخير، 2003، صفحة 64)

وبالعودة إلى المدوّنة نستأنس بهذا النّموذج لتقديم تحليل وتوضيح لقاعدة الجهة:

«وعادت مونيك تسأله بإلحاح:

- إنّك لم تُجبني بعد: هل ستعود بين الحين والآخر إلى باريس؟

فقال لها سيمون وهو يحاول أن لا يُظهر أيّ أثر من الانفعال:

- وهل هو بالذّات يعرف ذلك؟

فأجابها خالد:

- إنني آمل يا مونيك أن لا تستمرّ الحرب إلى الأبد.

لم يكن هذا الجواب دقيقا ولكنّ خالدا اعتبره كافيا كلّ الكفاية وواصل كلامه:

- أستطيع أن أؤكّد لك شيئا واحدا وهو أنني سأعود ذات يوم إلى دارنا

وبعد فترة صمت أضاف

- حيّا أو ميّتا؟

ثمّ انفجر ضاحكا من غير سبب

- لماذا تضحك؟

العبارة هي التي تُضحكني» (حدّاد، دت، صفحة 123) .

نتساءل عن خطاب الصّمت وآليات اشتغاله في نصّنا، بحيث وظّفه النّاص ستّ وثلاثين مرّة في مواضع عدّة، وفي أنموذج التّحليل يقول: "وبعد فترة صمت أضاف" وهو أحد عناصر سياق الخطاب في المحادثة وصمت السّارد كان قصيرا إذ "طول الصّمت يُفسد البيان" كما ذكر الجاحظ.

وفي الصّمت عدّة دلالات تكاد تصل إلى حد الاختلاف التام، ففي الوقت الذي ذهب فيه بعض فقهاء اللّغة إلى القول بأنّ الصّامت هو غير الناطق أي الساكت والأخرس، نجد البعض الآخر يؤكد – على النقيض من ذلك - بأنّ الصمت هو اختيار شخصي وفعل إرادي لا علاقة له بتدخل قوة خارجية فنجد أن الصمت يتخذ بعدا قدسيا ويعلي الفلاسفة من شأنه باعتباره مصفاة للنفس، ونافذة للتأمل ووسيلة لحوار الأنا مع ذاتها (الهاشمي، 2015) ومن دلالاته أيضا الحشمة والوقار، وهو بذلك يكون نقيض اللّجاجة والثّرثرة.

وما يهمّنا في هذا الموقف الحواري ما ينطبق على نموذجنا دلالة الحذف التي تمّ تغييبها واستحضرها التأويل فكيف للسّكوت علاقة الجزائر بفرنسا ضمن علاقة الاختلاف والإرجاء بالاصطلاح الدريدي، ذلك أنّ الحركة السّردية تتعضّد بالسّكون وتتأصّل فيه. وهو ما يشي به قوله: " هل ستعود بين الحين والآخر إلى باريس؟" وهو السّؤال المفتاحي الذي اسْتُهلّت به المحادثة وأكّد ذلك به: " لا تستمرّ الحرب إلى الأبد" فالحديث عن موقف اجتماعي فردي شخصي صداقة بين (مونيك) و(خالد) لكنّه في العُمق يعكس العلاقات السّياسية المتوتّرة بين الجزائر وفرنسا في علاقة ثنائيّة الغياب / الحضور، التي تكتسي قيمة كبيرة في أنظمة التّواصل، تعرف ببلاغة الصّمت تنتقل من لغة المقال

إلى لغة الحال فنرى المبدع يستحضر هذه الدّلالة (دعوة مونيك لخالد علاقة حبّ) ويُغيّب ما استنطقناه عبر الصّمت وهو علاقة الجزائر بفرنسا.

وفي هذه المحادثة اخترقت قاعدة الجهة إذ القراءة توحي بالدّلالتين السّياقيتين؛ فالرّمز أكثر أهمّية من التّوضيح، والصّمت أكثر أهمّية من الكلام. ومن حُرقة السّؤال تلهث على شفتي السّارد الكلمات "لم يكن هذا الجواب دقيقا ولكنّ خالدا اعتبره كافيا كلّ الكفاية وواصل كلامه:" وكأنّه يريد أن يبوح بشيء يملكه لمَن لا يستطيع أن يسمعه في حجب المسكوت ويُغيّبه ليُؤكّد قوله بـ "لا تستمرّ الحرب إلى الأبد "، وبناءً عليه فالصّمت لا يكون صمتا إلاّ حينما يَعْلَق بالكلام.

وبما أنّ الضّحك ظاهرة نفسيّة إنسانيّة مشتركة؛ فلماذا نضحك؟ ولمَن نضحك؟ يفترض لمرور رسالة الضّحك بين مرسِل ومرسَل إليه؛ تحديد المُضحَك عليه؛ غير أنّ المقطع السّردي المستشهَد به للتّحليل: - " ثمّ انفجر ضاحكا من غير سبب. - لماذا تضحك؟ العبارة هي التي تُضحكني"- يغيب منه وضوح سبب ضحك (خالد) مع أنّه يحسب نفسه يوضّح سبب ضحكه ويرجعه إلى عبارة "حيـّا أو ميـّتـــــا؟" فهل هذه العبارة مضحكة؟ أو تتطابق مع وضع أو تعبير إنسانيّ مضحك؟ كأنّ الموت صنوان الحياة ولم يَعُد الموت يمثّل خوفا ورعبا وخواءً ووحشة مشكّلا القلق الوجوديّ.

إذْ لا تكون العبارة في حدّ ذاتها مضحكة بقدر ما يكون فعل الذّهول من الحياة كما من الموت مضحكا فالعبارة لم يدركها عقل (مونيك) و(سيمون) الّذي اتّسم بالاختفاء خلف الانسجام والتّوازن، فالعبارة عند (خالد بن طوبال) فقدت الانسجام بين الموت والحياة.

فعلى الرّغم من كون الضّحك عدوى تسري بالمشاركة وتُقرّب بين الأفراد، إلاّ أنّ ضحك (خالد بن طوبال) لم يجد صدًى ومساحة للانتشار والتّوسّع مع الحاضرين (مونيك) و(سيمون)، ممّا جعل ضحك (خالد) يُولّد الالتباس والنّفور منه " لماذا تضحك؟" سؤال الاتّهام لتصرُّف غير منطقي من (خالد) الذي لم يبـــحْ بالحزن لأصدقائه مفضّلا أن يبقى سرّا من أسراره، فأعلن بدل ذلك الفرح وأشهر الاحتفاليّة ضاحكا، وبذلك فإنّ الاحتفاظ بتراجيديا الألم مفردا ومشاركة كوميديّة للجميع فاشلة، فلم يتحقّق معنى الضّحك كاملا.

ومن هنا يمكن لنا أن نتصوّر عمق المأساة؛ أن يوجد شخص في بيت عدوّه أكثر مدعاة للضّحك من عبارة "حيـّا أو ميـّتـــا؟"، فالحال ملـيء بالمواقف المضحكة التي تشبه البكاء على حدّ قول الشّاعر المتنبّي:

وَمَاذَا بِمِصْرَ مِنَ الْمُضْحِكَاتِ *** وَلَكِنَّهُ ضَحِكٌ كَالْبُكَا (عزّام، دت، صفحة 499)

ففي حالة (خالد) فالضّحك هو نوع سامٍ من أنواع التّكيّف الفرويديّ ضدّ عالم يغلب عليه السّواد والحروب. وبالانتقال من النّظرة الفرويديّة إلى النّظرة الوجوديّة فإنّ: «المأساة تسفر عن كرامة الإنسان الذي يسحقه مصير غير مفهوم، ولكنّ الملهاة أدعى للحزن إذ أنها توحي بأنه ليس ثمّة كرامة إنسانيّة» (برانكو، 1967، صفحة 110)، وهذا ما استشعره (خالد) ضمن سلسلة من المفارقات؛ صمت يجادل الكلمة، وضحك معادل موضوعي للبكاء، وموت يصارع الحياة، كلّ هذا من شأنه أن يسبّب لـ (خالد) ألما مريرا وإرادة الحياة.

فحين فقد (خالد) الحرّيّة، قام بالتّعـويض عبر الضّحك فيقول الوجوديّـون: «إنّ ضحكي حـرّ، أو هو فعل حرّيّة، وهو إنّما يعبّر عن اختياري لنفسـي وتأكيدي لوجودي الخالص» (العشـري، 1979، صفحة 13) وبهذا يكون الضّحك صدى النّصر وموقفا نقديّا من اليوميّ ومن الأبديّ والتّاريخيّ، ومن الوجوديّ والكونيّ وليس مجرّد فعل عضلي آليّ بلا معنى، بل هو تفوُّق مؤقّت للضّاحك من المضحَك منه، فللضّحك دلالـة تواصليّة في مـقام تـداوليّ.

خاتـمة

بعد مقاربـتنـا تبيّـن لنـا أنّ القيمة الإبستيمولوجية لأعمال (غرايس) ترجع إلى طرح نظرية المحادثة، وفي التّفريق بين علم المعاني (Sémantic) والتداولية (Pragmatic) واللّزوم المنطقي (logical implication)، غير أنّ النّظرية لم تسلم من الانتقادات ومن ثغرات النّقد.

يُعدّ الاسـتلزام الحواري من أبرز المفاهيم التي تقوم عليها التّداولية، فهو يكشـف على نمط خاصّ من التّواصل يسمّى التّواصل غير المباشر أو الضّمني، والاستلزام الحواري لا يقف عند صدق القول، وإنّما بالطّريقة التي قيل بها داخل السّـياق. كما نجد افتقاد نظرية غرايس لمتطلّبات التّخاطب على اختلاف مستوياته، فمبدأ الكم ومبدأ الجهة يضيق دورهما في الممارسة الأدبية التي تشترط الرّمزية أحيانا والإطالة أحيانا أخرى.

فالنظرية قاصرة وغير قادرة على تفسير كلّ الحاجات الإبلاغية والحالات التّواصلية. وكلّ ما تفسّـره النّظرية قائم على إدراك المقاصـد العقلية المتعدّدة والمختلفة. ولهذا تعرّضـت النّظرية للتّطوير لاسـتكمال النّقائص على مسـتوى الجمالي والاجتماعي والأخلاقي. لعلّ أغلب ما يمكن ملاحظته على الدّراسات العربية المعاصرة سيادة التّنظير والتّرجمة الكسيحة تارة، وتارة أخرى إقحام التّراث والدّعوة إلى التّأصيل.

شـكّلت "رواية "رصـيف الأزهار لا يجيب" لـــ (مالك حدّاد) اسـتجابة فعّالة لقواعد (غرايس) بوصفها من النّصوص الأدبيّة الأكثر انتهاكا واختـــــراقا لقواعد الحوار الذي لا يمكن اعتباره مجرد تعاطي الكلام بل هو المقدرة على التوظيف المناسـب له أثناء التلفظ به في السـياقات والمقامات المختلفة، فإنّ قواعد المحادثة دائمة الحضور بالإيجاب والسّلب/ الخـــــرق.

قائمة المراجع

أوّلا: المراجع باللّغة العربيّة

1 ـ أ.مولز، زيلتمان ك، و أوريكيوني ك. (2014). في التداولية المعاصرة والتواصل فصول محتارة. (محمد نظيف، المترجمون) الدار البيضاء، المغرب: أفريقيا الشرق.

2 ـ البخاري أبو عبد اللّه محمد بن إسماعيل. (2006). كتاب بدء الخلق. تأليف البخاري أبو عبد اللّه محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري (الإصدار 1، صفحة 815). بيروت/دمشق، لبنان/سوريا: دار إبن كثير للنشر و التوزيع.

3 ـ العياشي أدراوي. (2011). الاستلزام الحواري في التداول اللساني من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها (الإصدار 1). الجزائر العاصمة ، الجزائر: منشورات دار الاحتلاف.

4 ـ أمينة بلهاشمي. (2020). المكان وشعريّته في ضوء المنهج السّيميائي (دراسة نموذجية في الشّعر العربيّ والجزائريّ الحديث) (الإصدار 1). دب: المعتز للنّشر والتّوزيع.

5 ـ آن روبول، و جاك موشلار. (2003). التداولية اليوم علم جديد في التواصل (الإصدار 1). (سيف الدين دغفوس، و محمد شيباني، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الطليعة للطباعة والنشر.

6 ـ توفيق قريرة. (02 سبتمبر، 2019). سيميائيات الخريف. تاريخ الاسترداد 12 Mai, 2022، من https://www.alquds.co.uk/سيميائيات الخريف: https://www.alquds.co.uk/

7 ـ جاك دريدا. (2005). الصّوت والظّاهرة (مدخل إلى مسألة العلامة في فينومينولوجيا هوسّرل) (الإصدار 1). (فتحي إنقزّو، المترجمون) الدّار البيضاء، المغرب: المركز الثّقافي العربي.

8 ـ جاك دريدا. (1998). صيدلية أفلاطون (الإصدار دط). (كاظم جهاد، المترجمون) تونس، تونس: دار الجنوب للنّشر.

9 ـ جلال العشري. (1979). الضّحك فلسفة وفنّ (الإصدار دط). القاهرة، مصر: دار المعارف.

10 ـ جورج ممدوح كدر. (2009). أدب النّكتة بحث في جذور النّكتة الجمصية (حرب الإيديولوجيا الفكاهية وليتورجيا المجانين المندثرة) (الإصدار دط). سوريا: دار مؤسسة رسلان للطباعة والنّشر والتّوزيع.

11 ـ جيني توماس. (2010). المعنى في لغة الحوار مدخل إلى البراجماتية (التداولية) (الإصدار 1). (نازك إبراهيم عبد الفتّاح، المترجمون) الرياض، السعودية: دار الزّهراء.

12 ـ خيرة مباركي. (13 Mai, 2021). الورد بين الثقافة الناعمة و الرمز الفني ج1. تاريخ الاسترداد 07 Avril, 2022، من https://alantologia.com: https://alantologia.com/blogs/44003

13 ـ خيرة مباركي. (21 Mia, 2021). الورد بين الثقافة الناعمة و الرمز الفني- ج3 رمزية الزهور في الأدب العربي الحديث. تاريخ الاسترداد 7 Avril, 2022، من https://alantologia.com: https://alantologia.com/blogs/44331

14 ـ خيرة مباركي. (21 Mai, 2021). الورد بين الثقافة الناعمة و الرمز الفني ج4 الإنزياح في صورة الورد و الزهور في الأدب العربي الحديث. تاريخ الاسترداد 26 Novembre, 2023، من https:// alantologia.com/blogs/ 44364: https://alantologia.com

15 ـ خيري منصور. (09 جوان، 2017). ذبابة الكتابة. تاريخ الاسترداد 15 سبتمبر ، 2017، من https://www.alquds.co.uk/ذبابة الكتابة: https://www.alquds.co.uk

16 ـ رشيد الهاشمي. (3 ديسمبر، 2015). في فلسفة الصمت . تاريخ الاسترداد 11 جويلية، 2017، من https://www.maghress.com: https://www.maghress.com/aljassour/41128

17 ـ سالم محمّد الأمين الطلبة. (2008). الحجاج في البلاغة المعاصرة (الإصدار 1). بيروت، لبنان: دار الكتاب الجديدة المتّحدة.

18 ـ سيلفيا فيديريتشي. (21 Mai, 2018). أجور مقابل الأعمال المنزلية. (Wendy Edmond and Suzie Fleming، المحرر) تاريخ الاسترداد 15 Nouvembre, 2023، من theaproject: https://www.theaproject.org

19 ـ صلاح إسماعيل. (2005). نظرية المعنى في فلسفة بول جرايس. القاهرة، مصر: الدار المصرية السعودية.

20 ـ طه عبد الرحمن. (1998). اللّسان والميزان أو التكوثر العقلي (الإصدار 1). الدّار البيضاء، المغرب: المركز الثّقافي العربي.

21 ـ عبد الوهاب البيّاتي. (1999). نصوص شرقية (الإصدار 1). دمشق، سوريا: دار المدى للثّقافة والنّشر .

22 ـ عبد الوهّاب عزّام. (دت). ديوان أبي الطيّب المتنبي (الإصدار 1). دب: لجنة التأليف والترجمة والنّشر.

23 ـ عمر بلخير. (2003). تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النّظريّة التداوليّة (الإصدار 1). الجزائر العاصمة، الجزائر: منشورات الاختلاف.

24 ـ فرانسواز آرمينكو. (1987). المقاربة التّداوليّة (الإصدار 1). (سعيد علوش، المترجمون) مركز الإنماء القومي.

25 ـ مالك حدّاد. (دت). رصيف الأزهار لا يجيب (الإصدار دط). (حنفي بن عيسى، المترجمون) الجزائر، الجزائر: المطبوعات الوطنيّة الجزائريّة.

26 ـ محمد أحمد طيارة. (26 septembre, 2006). الورد.. بين الأساطير و التراث الشعبي.. دراسة شفاهية بعطر الحب. تاريخ الاسترداد 23 Mars, 2022، من https://www.alriyadh.com/189322: https://www.alriyadh.com

27 ـ محمّد يحياتن. (دت). مدخل إلى اللّسانيّات التّداوليّة(لطلبة معاهد اللّغة العربيّة وآدابها) (الإصدار دط). الجزائر العاصمة، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعيّة.

28 ـ محمود أحمد الصغير. (2001). الأدوات النّحويّة في كتب التّفسير (الإصدار 1). سوريا / لبنان: دار الفكر/ دار الفكر المعاصر.

29 ـ محمود عكاشة. (2013). النظرية البراجماتية اللّسانية (التداولية) دراسة المفاهيم والنّشأة والمبادئ (الإصدار 1). دب، دب: مكتبة الآداب.

30 ـ مسعود صحراوي. (2005). التّداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللّساني العربي (الإصدار 1). بيروت، لبنان: دار الطّليعة للطّباعة والنّشر .

31 ـ وائل حمدوش. (25 ديسمبر، 2008). التداولية: دراسة في المنهج: و محاولة في التصنيف. تاريخ الاسترداد 04 أوت، 2010، من www.ouarsenis.com/vb/attachment.php?attachmentid=3948: www.ouarsenis.com

32 ـ ياسين بوعلي. (1996). بيان الحدّ بين الهزل والجدّ (دراسة في أدب النّكتة (الإصدار 1). دمشق، سوريا: دار المدى للثّقافة والنّشر.

33 ـ يحيى بن الوليد. (12 نوفمبر، 2008). خطاب ما بعد الاستعمار. تاريخ الاسترداد 19 مارس، 2019، من https://www.alkalimah.net/Articles/Read/1200: https://www.alkalimah.net

34 ـ يونار برانكو. (1967). مسرح الطّليعة (الإصدار دط). (يوسف إسكندر، المترجمون) القاهرة، مصر: دار الكتاب العربي للطباعة والنّشر.

35 ـ يونس علي محمد محمد. (2006). علم التّخاطب الإسلامي (دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النّص (الإصدار 1). بيروت، لبنان : دار المدى الإسلامي.

ثانيا: المراجع باللّغة الأجنبية

36.Dickinson, M. H. (2003). Come Fly With Me. Engineering and Science (3), 10-15.

37.Hyppolite, J. (1971). Figures de la pensée philosophique. France: P.U.F.